العادة السرية (١)

للدكتور ابراهيم ناجي بك

العادة السرية قديمة جدًا ، وقد دلت النقوش في معابد بعض الأمم القديمة — كالصين — على أن مزاولة هذه العادة شيء يرجع إلى أقدم أزمنة التاريخ . وقد دلت الأبحاث على أنها أمر شائع في الحيوانات عن اطلاقها ، شوهدت في الخيل ، والفيلة ، والمعز ، والغنم ، وأما في القرد فأمرها مألوف . ويقصد بالعادة السرية ، الحصول على الارواء الجنسي باليد ، بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، ويقصد بغير مباشرة الاستعانة بأشياء تشبه الأعضاء التناسلية . وقد فضل الباحثون أن يشمل التعريف أي « ارواء جنسي يزاوله شخص بمفرده » . . . . . واذا استعرضنا تاريخ هذه العادة على مر الاجيال ، علمنا أن سببين كبيرين أو بالاصح عاملين كبيرين كانا دائمًا السبب في شيوعها . الأول : عدم الحصول على الوسيلة الطبيعية والاشباع الجنسي بأي طريقة من الطرق . وأهم الموانع ، العزلة والبعد عن الرفيق ، أو وجوده مع صعوبة الحصول عليه . . . هذا هو السبب الأول ويمكن أن نسميه « الحرمان الجنسي » . . . . وأما السبب الثاني : فانتشار الفساد وظهور الاضمحلال في أمة من الأمم . فان الفساد والاضمحلال يشجعان أولاً : باستباحة ما هو غير مباح ، وثانيًا : الاستكثار من وسائل اشباع اللذة ، امعانًا في السرور والشرف . والدليل على ذلك ما نعرفه من أمور الدولة الرومانية في انحلالها ، فقد انتشرت فيها هذه العادة ، وصارت مزاولتها علنًا أمرًا لا عيب فيه . والأدهى أن حفلات الترف واللهو كانت تقام لتزاول فيها العادة السرية ، يزاولها الرجال لاشباع الرغبة الجنسية عن هذا السبيل . . .

المهم اني أعرض سببين لانتشار هذه العادة — الحرمان ، واضمحلال الخلق . . . —

(١) محاضرة ألقيت بالقسم الثاني بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة

أما الطرق الجنسي ، فإني أجمله فيما يلي مختصراً ، وهو [illegible] كما أننا نحب أن يسير الطفل [illegible] في كل شيء من أمر نفسه وبيئته الخارجية ، فكذلك نحب أن يسير [illegible] في أمر جنسه ، فلا نحب أن تحدث [illegible] في معالجة أمور جنسية [illegible] أن نبحث في [illegible] التي تصادي الطرق الجنسي ، ما أسبابها ؟

هنا نستعرض حياة الطفل ، وحياة المراهق ، وحياة الرجل ، فنرى أن هذه المراحل وجهة خاصة . أما الطفل — وقد شوهد أطفال [illegible] — فإنه [illegible] شيئين يبدأ بهما ، فيحاول [illegible] جسمه ، ووالدته أو [illegible] جلده ، ثم المناطق الحساسة التي بالجلد وخاصة الفتحات كالفم والشرج .

فإذا تهيجت هذه المناطق بسوء الاستعمال ، أو بسبب أحد الأمراض (كالديدان) فحص عنه أول داع لكي يزاول الطفل هذه العادة ، وانحث عن الشرج الخاص لا الجنسي . . . ولكن الأم . ما دورها هنا ؟ إنها تهجم على الطفل ، وهي تشتشم ما يفعله وتهدده بحرق يده ، أو بقطع عضو آخر . . . لأنها تجهل ما يحدث أمامها ، وتظن أن ما يقوم به الطفل عمل جنسي لا يليق ، وتهديد الطفل ، يبدأ دور النواهي ، والخايفة ، والعقد ، ودور الاحساس بالذنب Sense of guilt والألم النفسية لتأكيد أنها بهذه النواحي ، والتهديدات قد قضت وطرها ، أو قضت على العادة .

كلا بل إنها بدأت بأحداث أكبر عقدة في حياة الطفل — ثم الرجل فيما بعد — ألا وهي الشعور بالذنب .

إن هذا الشعور بالذنب يطوي مؤقتاً ، ولكنه دائماً في حاجة إلى [illegible] والتفكير له سبل كثيرة منها عقاب النفس ، إما بالفكرة ، وإما [illegible] وخاصة إذا [illegible] فعلها بالقطع فإنه يحدث له ما يسمى عركب [illegible] Castration وهذا مركب يبالغ عليه فرويد أهمية كبيراً ، وهو مركب مستقر في [illegible] ، يدور حول مخاوف مبهمة عن الأعضاء التناسلية ويؤدي إلى السيرة الجنسي [illegible] ولما كانت العادة السرية في طريقة مزاولتها ما هي إلا نوع من [illegible] تعبيراً صحيحاً عن دعوا العادة السرية « جلد عميرة » وهي في عرف علماء النفس العصابيين نوع من الاعتداء aggression or frustration فقد اجتمع لنا في الطفولة عادة [illegible] الجلد ، وعادة جلد اليد ، ثانياً تربية الاحساس بالذنب ، وما يتبعه من التفكير في الاعتداء على النفس وعقابها . .

عند ما يأتي دور المراهقة يكون الصبي قد أخذ يفهم ويبدأ السرور بالاعضاء الجنسي يستيقظ ويكون قد عرف اللذة الجنسية . وكذلك ينشط الخيال عنده . إذ تنشط الغدد ، وتأتي صور في هذا السرور الخيال . إذ ليس هناك اتصال جنسي بالمعنى المعروف ، وإنما كل ما يكون أمامه هي خيال يدور حول الجنس . . . وهنا يجيء دور الأم مرة أخرى وأقول الأم ، متناسية الأب لأنها هي التي عليها أن تتفق وتلاحظ لأن وقتها يتسع لها . أنها تلاحظ في هذا الدور تغيراً في ابنها وتلاحظ انه يحب العزلة والانفراد ، وتلاحظ انه يحاول أن يخفي عنها كتاباً يقرؤه ، أو صوراً يخبئها . . . وتلاحظ كذلك شعوره وأنه . ونحن نتصور هنا طفلاً تسير أم جاهلة في اعدات العادة السرية عنده بدون أن تقصد . . . قد صار مراهقاً الآن ، والأم تلاحظه . انها راقبته وقد عرفت سره . انها ليست أماً جاهلة فحسب ، بل شديدة الرقابة ، شديدة الزجر ، متطرفة في عقائد دينية عنيفة . وهي من أجل هذا تخافه من الاختلاط ، وقد تحبسه وتضربه إذا لمحته في صحبة صبية غريبة . ولكنها أم على كل حال ، فهي قد ارتاعت لشعوره ، وهي قد صممت على عرضه على طبيب لأنها رأته فرأته يزاول العادة السرية . ليس لدى الطبيب إلا أن يفحصه ، ويعطيه الدواء المقوي ويزوده ببعض النصائح . أما هي فتخبر أباه ، وقد تخبر أخاه الأكبر ، وقد يجتمعون ليؤكدوا له ان ما هو صارع فيه يؤدي إلى الجنون أو إلى العمى أو إلى الشلل . ويكون المسكين قد زاول هذه العادة خفية مدة طويلة قبل أن يكتشف . فيؤكد لنفسه أنه — حتماً — صائر إلى الجنون أو العمى أو الأمراض الخطيرة . فتضعف نفسه ، وتنهار ارادته ، ويظل تحت أسر العادة بدل أن يستطيع التخلص منها . . .

مسكين هذا الصبي الذي تحسبه تمارس هذه العادة لمجرد السرور الحادث منها !

كلا إن ما يجري ، كالشذوذ الجنسي ، كالمنحرفيات perverse أي المسرات الجنسية التي يفضلها الكثيرون من الطريق الطبيعي . . . انما يمارسها نتيجة لأخطاء قديمة في التربية المنزلية ، ولأخطاء في المجتمع المتملىء بالنواهي والحبل الجنسي الناشىء ، ولأخطاء في الفهم حول هذا الموضوع . . .

عند ما يشب الصبي الذي يزاول العادة (الجنسية) فهو من اثنين إما أن تدخله العلاقات الطبيعية وتصرفه عن العادة ، وإما أن يستمر فيها ، وقد تحققت — كطبيب — أن استمرار رجل على العادة السرية ، يكون سببه دائماً مرضاً بالبروستاته ، أو للجزء الخلفي من مجرى البول يصيب العادة السرية . وان علاج هذه الأسباب كفيل بالقضاء لأن مزاولة العادة السرية لمدة طويلة يحدث تهيجاً بالجزء الخلفي من مجرى البول يستثير الشهوة الجنسية

التي تدعو إلى العادة السرية ، التي تسبب بشورها احتقاراً وشعوراً [illegible] والعلاجي لها بسيط ، وهو الديالوجي ، والتطهير بتقدم النفس في الخير الخلقي .

قد تكلمت عن الحرمان والعزلة ، وما يسببه الشعور الناشئ عن هذا الحرمان والعزلة ، وأعني المجتمع الناقص المجتمع الذي سد باب التحليل ، وغير عن جنسه أو [illegible] الحقيقي نحو الإلحاح الجنسي وقسوته . . . إن الحرمان الذي يتزوج به في حياته من الجنس الآخر يكون ، يكون في أول أدواره شعر القلق النفسي Anxiety . [illegible] ، وبألوان من الندم والرغبة في التفكير والاحساس بالذنب ، تكرر بها الساعة التي تملكته عادة فليس له من سبيل للتخلص منها ، لأنه قد فقد إرادته ، وكلما فقد إرادته صار عبداً لها ، وكلما صار عبداً لها زاد انفراداً بنفسه للحصول على لذة يسيرة منها ، ولما حصل على اللذة السهلة أفرط فيها فأصابته أضرار الأفراط لا أضرار العادة . ولست من الذين يهولون أضرارها . ولو أني لا أميل إلى التهويل . إن الأضرار النفسية إن لم تكن ملازمة من العادة بالذات ، فإنها مقترنة بها ، وأعني بذلك أن هناك نفساً مريضة ، أو مهيأة للمرض النفسي ، وقعت في أسر العادة السرية ، التي جاءت نتيجة المرض النفسي من عوامل أخرى ، فلدينا إذن حلقة مفرغة كما يقول الانجليز . . .

الخلاصة إذا يجب أن نعد المريض بالعادة السرية ، مريضاً نفسياً ، مريضاً يرغب علينا أن نخلصه منها . فهل يكفي التخويف ؟ كلا انه يضر كما بينا ، هل يكفي أن نقول له إقلع ، وان يقول لنفسه في إصرار علي أن أقلع . . . علي أن أقلع ؟

كلا ان هذا لا يفيد . ان هناك قانوناً يقول : اذا تصارعت إرادة مع الخيال فاز الخيال ، وقد شرحت ان الخيال ، خيال المحبوب ، وخيال صورته ، وخياله في أحضان الفكر . كل هذا كفيل بأن يقضي على الإرادة ، فالمهاوة من أصلها .

اذن فما الطريقة ؟ وكيف السبيل ؟

أولاً : نفحص المريض جسمياً لمثلما كنا من عدم وجود مهيجات .

ثانياً : نفحص عقل الأم والأب لنعلم نصرفاتهما الخاطئة .

ثالثاً : نعتبر المريض بالعادة مريضاً نفسانياً جديراً بالتحليل

وهذا ما لا نستطيع معرفة حالة بعد معرفة نفسيته ، ان نصرفها إلى حالة عادة صالحة بكاملها ، فإنه ستوجد تشخيص وقت النصح أو الكتاب وأخيراً . . . لا بد من اجتناب العزلة ، لا بد من الدخول في زحام الحياة ، لا بد من الاختلاط والاشتغال بالعالم وأمورها .